

بطل ومخيم

قفز أحمد الملقب "بالبطل" من فوق شجرة الجوز العالية محاولاً إخافة رفاقه الصغار بلعبة بريئة ووجه ضحوك، غير أنهم قابلوا صرخته بثبات وشجاعة قائلين له: "لن نخيفنا فنحن أبطال أيضاً"، فغير أحمد البطل الحديث طالباً من رفاقه أن يذهبوا معه إلى الحقل ليلعبوا هناك لعبة الاختباء، وفي نفسه أنه سيحاول إخافتهم مرة أخرى وسينجح فهو البطل الذي لا يهزم، وصلوا إلى حقول القرية فراح بعض الأولاد يلاحق الفراشات وآخر يتسلق الأشجار وغيرهم ركض نحو نبع الماء يريد السباحة، ووقف البطل ينظر إليهم مستغرباً وقال في نفسه: "كل واحد منهم في اتجاه؟"، ثم صرخ فيهم لقد أتينا للعب جميعاً لا كل واحد بمفرده، يا فلان أقبل وأنت تعال وهكذا جمعهم وراحوا يلعبون بفرح كبير وعندما قاربت الشمس المغيب جاء أحد الولاد وكان من قرية أخرى وقال للبطل:

- ما هذا الدخان البغيض الذي سد الأفق؟ أهكذا تغيب الشمس عنكم؟

- شمسنا أجمل شمس، وغروبنا لا يكون إلا جميلاً رد قائلاً، والتفت نحو الغروب ليشرح لمحدثه ولكل الأولاد روعة المنظر وجماله؛ لكنه سكت واحتبست الكلمات في حلقه ما هذا لقد صدقت إنه دخان بغيض فما هو؟ ومن أين أتى؟ وما هو مصدره؟

غير أن الولد لم يجد في نفسه أجوبة على تساؤلاته، فهرع راضياً نحو قرينته والدموع في عينه والحيرة تسيطر عليه، أسرع فأسرع الأولاد ورائه، هذه ليست قرينتنا أين جمال الورد فيها؟ أين سماحة الإنسان فيها؟ أين ضحكات أهلها وسكانها؟ لم الصراخ والعيول لم البكاء والنحيب؟ ومن هؤلاء الوحوش التي تحمل في يدها الموت تطلقه على أهلنا فإذا أصاب أحدهم سمعت لهم ضحكات كأنها انفجار بركان؟

أسئلة قبل أن يجد الأطفال جوابها وجدتهم قد اندفعوا خلف قائدهم البطل يرمون أحجار الحق على هؤلاء المعتدين الذين جاؤوا ليدمروا الحياة ويزرعوا بدل الورد شوكة، اندفعوا لا يطلب من أحد ولا لأنهم عرفوا أن المعتدين يريدون احتلال أرضهم، بل اندفعوا لأن قائدهم اندفع ولأن نفوسهم الطاهرة تأبى الغدر والظلم، وتحب البطولة والفداء.

قبل شروق الشمس، كانت قافلة المهجرين تسير خارجة من القرية تاركة وراءها مراتع صبي وأجمل أيام، ونفس طفل تسيل دمماً يلتف يمنة ويسرة يبحث عن رفيق يقاتل معه، أو شجاع يهتف فيه يابطل ليترك القافلة ويحمل حجر، سنعود يوماً سنعود، فانتظروني لا ترحلوا سيناديني صوت في أحد الأيام لأحرر التراب وأطهر المكان .

وهو في أفكاره نظرت إليه أمه كأنها عارفة بما يجول في خاطره، فضمته إلى صدرها حتى شعر بدموعها تبلبل رأسه الصغير، ومن غير صدر أمه سيضمه ليحميه. يا بطل يابطل سمع من يناديه إنه النداء الذي أنتظره، لقد قلت لكم إنني سأسمعه يوماً ولن أقصر في الدفاع، من هوذا الشجاع الذي يناديني يأمي أتركيبي أريد أن ألبى النداء.

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- أنا زوجك يا أبا عمر أناديك، هل عدت إلى سابق عهدك شارد كلما ناديتك لا تجيب؟

آه آه آه... الآن تذكر البطل ... أنا في المخيم! مخيم الشتات كنت أسترجع الذكريات ذكريات بلدي الحبيب البلد الأسير فلسطين...

دانيال بصبوص